فضل إسماعيل على الزراعة والفلاحة

للأستاذ على الروبى أستاذ فلاحة البساتين بكلية الزراعة بجامعة فؤاد الأول .

لى الشرف وقد أنابنى حضرات إخوانى عنهم فى التحدث اليوم إليكم عن إسماعيل العظيم أن أقف مكفراً عنكم وعنى فيما ظنناه فى إسماعيل(١) . وأن نغسل تلك الشبهات عن عهد إسماعيل وأن أحلل تلك النفس العظيمة فى سويعات لمن حكم منكم ولم يبحث ، ومن اتهم بريئاً ولم يشهد ، لعله يرتدع عن الهوى أو يعاود بحثه ثانياً ثم يحكم .

وإنى شاكر لهذه الذكرى التى هيأت لى الكلام بعد فحص طويل لحياة عبقرية ما كانت أجرؤ لتلمسها إلا عقب دراستى لأعمال فنية من مخلفاته قادتنى إلى استقراء دقيق لمنشئها حتى اتفهم دقائقها فوجدت أعماله عظيمة ووجدت شخصيته أعظم .

وما زادنى البحث إلا يقيناً أن إسماعيل كان بريئاً وما زادنى إلا يقيناً أنه كان مظلوماً وقد حجبه خصومه عن عقول شعبه بغلالة قد آن أن تنزلق عنه فيبدو نوراً ساطعاً ظهر فى سماء الشرق .

ولكى ندرس أعمال إسماعيل دراسة فنية عميقة ، وخاصة العمل الزراعى والفلاحى منها يجب أن نلم بشخصية هذا المنشىء حتى تتكشف لنا تلك الروح التى أملت هذا العمل والدوافع التى أتمته . فنجد أن خليطاً من العوامل الوراثية والخلقية والبيئية قد صهرت سوياً وصقلها الزمن والتجربة فأخرجت نفساً ذهبية براقة أضاءت سماء مصر بنور وهاج فى ذلك الظلام الدامس .

فعامل الوراثة فى إسماعيل سائد من أبيه وجده ظاهر فى صفاته كمجدد ، محب للتقدم ، بناء ، أول مخلص كبير .

---

(١) وضع المسيو بيير كرابيتس كتاباً بالفرنسية فى الدفاع عن إسماعيل « إسماعيل المعتدى عليه » وترجمه الأستاذ فؤاد صروف إلى العربية وهو حجة فى هذا الموضوع

مصرى أول أحب هذا الشعب وحنى عليه فسار به إلى الأمام رامياً إلى رفع شأن مصر ووضعها فى الأمام .

التربية الأوربية التى تلقاها وهو يافع فى باريس واندماجه وسط الحضارة فى ذلك الحين بعد سياحاته فى الممالك الأوروبية جعلت نفسه عامرة بحب الإصلاح لبلده ودمجها فى صف تلك الأمم .

كان فناناً يهوى الجمال ويقدره وتخصص فى فن تخطيط المدن فأجاده دراسة وتنفيذاً والأسكندرية والقاهرة مدينتان له إلى الأبد .

ولم يكن إسماعيل مرشحاً للعرش وهو صغير وطالب فدرس دراسة حرة كأى مواطن حر لم تحطه أبهة ولا تعظيم يحجبان عنه دقائق الكون وحقائقه ، بل عاش كفرد ودرس كفرد ومرّ بما يمر به كل فرد فلما أصبح وهو ليس بفرد عرف حقيقة الفرد .

فلما وضعته الأقدار مرشحاً للعرش آمن بها وازداد يقيناً بأنه منتظر لخير هذا البلد فزادت نفسه وقوفاً وامتلأ قلبه إيماناً وزاد اعتداداً بتلك الشخصية الفذة التى تنتظرها الأيام .

حضر إلى مصر فى عهد يقضى على أعمال أبيه وجده ويقوض ذلك الميراث الذهبى أمام ناظريه فحزن واعتزل ومنع المنكر بيده ثم بلسانه ثم بقلبه ثم لاذ باستانبول قبل أن تدركه يد المنون .

ترك مزارعه فى مصر بعد أن مهن الزراعة مدة هاوياً وآل على نفسه ألا تطئ أقدامه هذه البلد قبل أن تنقشع عنه سحابة الظلم وقد حق قوله فعاد فى عصر سعيد .

ونخرج من هذا التحليل السريع برجل جرىء لا يسكت على ظلم يسهون كل صعب فى تنفيذ غرضه شجاع جم الشجاعة يضحى بكل عزيز ليصل إلى مثله الأعلى .

فرد يعتمد على نفسه لا يجد عوناً من رعية هلهلها الجهل والظلم لا تعينه

بل تعيقه يضطلع بحمل ثقيل آل على نفسه أن يحمله إلى الأمام ويضعه طائعاً أو كارهاً فى مكان لائق به تحت الشمس .

رجولة تفصل بلداً من قارة وتلحقها بقارة أخرى كان فناناً يقدر الجمال لا يبقى على حب للمال يصرفه ولا يعبده يعطيه ولا يخفيه .

مجهود جبار تنوء به كبار النفوس ، ولكن المثل الأعلى يناديه فسار وسار شوطاً بعيداً حتى قارب بحمله النهاية .

كانت مصر يا سادة سنة ١٨٦٣ تسبح فى جهالة قوية فاقت مثيلتها فى العصور الوسطى إذ لمح سراج محمد على وإبراهيم ردحاً قصيراً فبدد الظلام ولم يعتدل السراج فجأة وأعقبه ظلام دامس يعقب ذبول الضوء فأصبح المكان أشد حلكة من قبل .

وهكذا تحسس إسماعيل مكانه إلى العرش وقد لاقى إسماعيل عقبات حين تبوأ العرش كان من المحال النجاح بدون تذليلها فذللها ثم نجح فعدل اتفاق القنال وأوجد قانوناً مختلطاً يتقاضى أمامه الجميع وحدّ من امتيازات تمنح فى استانبول لتنفذ فى القاهرة واستكمل استقلالا كان أعرج ونظم وراثة العرش وأوجد المسئولية الحكومية والبرلمانية ومنع الرق .

ونهض بالحياة الروحيـة والمنزلية للمصريين ، وكان خير قدوة يحتذوها وكانت البلاد فى ظروف لا تحل القوة والجيش فيها عسيراً فلجأ إلى السياسة والدعاية حتى وصل إلى صميم غرضه .

وقد أنشأ وزارة للزراعة سنة ١٨٦٥ وألحقها بالرى وخيراً فعل ثم جدد مدرسة الزراعة بعد غلقها مدة طويلة وبذلك وضع نواة زراعية نظامية للبلد .

وتوجـه للمشروعات التنفيذية فشق العديد من الترع التى حولت الرى الحوضى إلى صيفى فشق الإبراهيمية والإسماعيلية ونظم المحمودية وغير ذلك من المشروعات المائية وحدها بجسور للمواصلات تربط أطراف البلاد بعضها بعضاً ، كما أنشأ عليها العديد من القناطر والكبارى تكملة للغرض الزراعى

ومد السكة الحديدية بالوجه القبلى واستكملها بالبحرى وأصبحت البلاد مرتبطة بعضها بعضاً .

وقد شجع زراعة القطن أبان الحرب الأمريكية عند انقطاع وروده إلى أوروبا فجنت البلاد من ذلك ربحاً وفيراً ، ولكن عند انقضاء تلك الحرب وقع زارعو القطن فى أزمة شديدة لهبوط الأسعار ، ولم ينقذهم منها إلا إصداره مرسوم أذونات القرى وهو أول مشروع تعاونى نفذته هذه البلاد وبه أنقذ ثروتها من الضياع إلى أيدى المرابين فكان أبو التعاون فى هذا البلد.

وقد تركت أزمة القطن فى نفسه أثراً لا يمحوه إلا إيجاد محصول آخر تتزن به الميزانية الزراعية فتوسع فى زراعة القصب كمحصول زراعى صناعى يجد الفلاح فيه سنداً له إذا هبط سعر القطن وهذا عمل من أصوب الأعمال المالية لتنظيم حال الفلاح بمصر .

وقد سعى إلى تمليك المصريين للأراضى الزراعية بشتى الطرق ومن أجلها منح زراع الحفية ملكية ما يزرعون بشرط التسجيل وبذلك إبتدأ فى توزيع الثروة الزراعية فى مصر وتمليك صغار الزارعين وزيادة دخل الحكومة من الضريبة المالية .

وإن نعدد أعمال اسماعيل الزراعية فلا نحصيها فقد كان أباً للفلاح راعياً لمصالحه عالماً أنه السند الأول والعامل الأول فى هذه البلاد .

وقد سبق القول أن اسماعيل قد درس فن تخطيط المدن بباريس وقد سار فى هذه الهواية عملياً شوطاً بعيداً فى مصر فأنشأ الإسماعيلية على أحسن تخطيط وجدد من أحياء المدن ما أحياها وأبقاها بشكل جديد إلى اليوم .

ففى الاسكندرية أنشأ أحياء جديدة بأكملها منها الرمل ومحرم بك وجدد الميناء ووسعه وأنشأ حدائق النزهة وخلافها مما تزهو به المدينة الآن .

أما القاهرة فقد ضاعفها إذ كانت ممتدة فى سفح المقطم من مصر عتيقة إلى

باب الشعرية وخلافه من الأحياء المعروفة بالوطنية الآن وكان يحده غرباً الخليج المصرى وشرقاً المقطم كما سبق ذكره فكان الامتداد الطبيعى للمدينة نحو الشمال فحوله غرباً حتى يصلها بالنيل فيتوسطها وتصبح كباريس يقسمها النيل عرضاً للشرق فخطط الأحياء الجديدة بالاسماعيلية والفجالة والأزبكية وخلافه ليصل بها إلى النيل .

وبعد أن انتهى من التخطيط وتمهيد الطرق شرع فى إنشاء الحدائق بتلك الأحياء فاستقدم الاخصائيين الأجانب فى هذا الفن وأنشأ حول قصوره بالجيزة والجزيرة العديد منها والفائقة فى تنسيقها . وقد أنشأ مستنبتاً بالجزيرة (حديقة الزهرية الآن) لتربية ما أدخله من نبات البلاد الغربية وقد أحصى ما استنبت فى عهده بألوف الأنواع .

وما حدائق الزينة التى تنعم بها القاهرة الآن إلا فضلات من حدائق قصوره خلاف ما اندثر منها بعد عصره المجيد كما أنشأ بالجيزة حدائق الفاكهة (مكان حديقة الأورمان الآن) استجلب لها من الفاكهة والخضر كل ما هو جديد غير معروف فى ذلك الحين فى هذا البلد .

ولم ينس الترفيه عن شعبه ومشاركته له فى الحدائق فخصص له حديقة الأزبكية وصممت على طراز حديقة مونسو بباريس فكانت أول حديقة للشعب الذى كان يحبه ويشغف به .

وانه لمن العسير الآن تقدير الإصلاحات التى قام بها إسماعيل فى مصر بحال ولا يفى مال لسداد ما نحن فيه من نعمه وفضل تفكيره .